المؤتمر العلمي الدّولي الأوّل
قسم اللغة العربية - كلية العلوم والآداب -جامعة نزوى
2016/11/29 - 28

الصنعة الروائية واستدعاء الشخصية التاريخية في الرواية العمانية (السيد مرّ من هنا نموذجاً)

الأستاذ المشارك الدكتور فليح مضحي السامرائي

جامعة المدينة العالمية - شاه علام -ماليزيا

مدخل

تعمل رواية ((السيد مرّ من هنا)) لمحمد بن سيف الرحبي على فعالية التجريب السردي الروائي، ضمن ممارسة كتابية تنهض على قيمة الصنعة الروائية في مجال السعي نحو فرض رؤية أخرى تكسر التقليد السردي في عرض الحدث وبناء الشخصية، إذ تقوم الرواية على راوٍ ذاتيّ مركزيّ ينهض بمهمة السرد من جهة، ويتدخل في معترك الحدث الروائي من جهة أخرى، وهو يروي روايته من زوايا نظر مختلفة، فالراوي (الفتى) يشتغل في طبقات سردية متعددة ومتنوعة داخل المسار السردي الروائي العام، إذ هو ذاتان في ذات واحدة، ذات أولى أساسية تنتمي إلى زمن السرد الراهن حيث تظهر صورة المكان العماني المركزي (مسقط)، بأمكنتها وتقاليدها وفضائها الإنساني من خلال الممارسات الإنسانية البسيطة التي يستعرضها الراوي الذاتي، بمعنى أن الرواية تتداخل بين زمنين سرديين ومكانين سرديين وشخصيات راهنة وشخصيات تاريخية، يسهم فيها الراوي الذاتي في لعبة سردية أو حيلة روائية تتمثل فكرة الصنعة التي تحيل على رغبة التجريب السردي، على نحو يتيح للراوي التلاعب بالزمن والشخصية والمكان بما يناسب استدعاء الشخصية التاريخية المركزية التي أسهمت في بناء الحضارة العمانية إبان القرن الثامن عشر، في سياق الاستعانة بالممكنات السردية داخل إطار الصنعة السردية بوصفها جوهر العمل الروائي التجريبي، وقد جاءت لغة الرواية ذات طبيعة سردية شعرية، ولاسيما في قوة حضور آليات الوصف بصورة غزيرة ومنتجة، عبّرت عن تفاعل اللغة وتوازنها مع حساسية السرد الروائي وتمثلاته المتنوعة.

إشكالية الدراسة

تقوم إشكالية هذه الدراسة على علاقة التاريخ بالرواية، إذ إن التاريخ عمل واقعي مدوّن في صيغ معينة، والراوية عمل متخيّل يحتاج إلى صنعة فنية ذات طبيعة جمالية، لذا فإن استدعاء الحادثة التاريخية فيما يسمى (الرواية التاريخية) يمثل رؤية في طبيعة هذه الإشكالية.

أسئلة الدراسة

نسعى من خلال هذا البحث الإجابة عن مجموعة من الأسئلة التي تطرحها الدراسة وتعتمد على فحص الكيفيات الفنية والجمالية التي يبحث الروائي في قضية إنجازها داخل عمله الروائي، فسؤال التاريخ، وسؤال الواقع، وسؤال الخيال، وسؤال الفن، وسؤال الأسلوب، وسؤال اللغة، كلها أسئلة تقتضي المعاينة والرصد في هذا النوع من الدراسات.

هدف الدراسة

الهدف الاساس من الدراسة يعتمد على إدامة الصلة بين التاريخ بوصفه مخزنا للحكايات الواقعية، وبين العمل الروائي بوصفه حكاية أو شبكة حكايات تتفاعل مع عناصر التشكيل الأخرى لبناء حدث جديد، فاستلهام التاريخ بطريقة روائية يمثل هدفا مركزيا لإعادة إنتاج التاريخ سردياً.

منهج الدراسة

المنهج المستخدم في هذه الدراسة هو المنهج البنيوي السيميائي الذي ينهض على التوغل العميق في طبقات النص وتحليلها، وحين يجد الباحث حاجة لتدخل مناهج أخرى مساعدة فإنه يستثمر ذلك في السبيل إلى بحث أعمق وأوسع وأخصب، ولاسيما فيما يتعلق بالرؤية التاريخية للسياق البحثي الجمالي.

وسيسلط البحث الضوء على مجموعة من العناوين باعتبارها ذات دلالات مهيمنة على الرواية قيد الدراسة، ونستطيع من خلالها سبر غور النص الروائي والتحليل العميق له والوصول إلى المعنى الجمالي الذي اشتغل عليه لراوي محمد بن سيف الرحبي وستكون العناوين الفرعية لدراستنا وفق الآتي:

. عتبة العنوان

. عتبة الاستهلال

. رمزيّة (الكيس الأسود): الخفاء والتجلّي

. التمثّلات التاريخية: إشكالية المرجع والمتخيّل

. عتبة الاختتام

عنوان رواية (السيد مرّ من هنا)

لمحمد بن سيف الرحبي هو عنوان اسمي خبري يهدف إلى الإخبار عن حدث ينطوي عليه حضور عنصري المكان والزمن، والجملة العنوانية الروائية جملة اسمية (خبرية) لخبر محذوف تقديره اسم الإشارة (هذا) أو بتقدير أقل الضمير (هو)، ومفردة (السيد) المفردة المعرفة هي الخبر الذي يتحدد بالإشارة أو الضمير، ودلالة مفردة (السيد) تحيل على أكثر من مرجعية دلالية، بعضها ديني، وبعضها طبقي، وبعضها سيادي، ولا يمكن حسم هذه الإحالة على مرجعية معينة من هذه المرجعيات إلا بمساعدة المتن الروائي الذي يكشف عن هوية هذا السيد، على النحو الذي يركز قيمة التسمية في العنوان وضرورتها وتفوقها على بدائل أخرى ممكنة ومحتملة.

الجملة الفعلية الحالية التي تعقب مفردة (السيد) هي التي تستكمل صورة الفضاء الخبري للخبر، وهي جملة ذات طبيعة سردية فضائية تحيل على حضور المكان والزمن والرؤية في سياق واحد، إذ إن الجملة (مرّ من هنا) تتكوّن من الفعل الماضي (مرّ)، والمرور مقترن بالمكان أولًا وبالزمن ثانيا، فضلا عن الرؤية التي تحدد طبيعة هذا المرور ولونه وشكله وقيمته وأثره في المكان والزمان، وبما أن الفعل جاء ضمن عنونة روائية فهذا يعني من حيث المبدأ أن هذا المرور هو مرور مؤثر يتصل بالحدث الروائي، وبالصنعة الروائية، وبالحكاية الروائية، على نحو أصيل ومركزي وحيوي ومنتج.

أما بقية الجملة (من هنا) فتحيل على المكان بالدرجة الأولى على اعتبار أن (هنا) اسم إشارة للقريب، وستتكشف هذه الـ (هنا) عن تاريخ حالي راهن يشير إليه الراوي في زمن السرد، وتاريخ ماضٍ يتحدث عنه في زمن الحكاية، و (هنا) اليوم غير (هنا) الأمس على الرغم من انتمائهما إلى مكان واحدٍ، المكان هو الجامع والزمن مفترق، وهذه الـ (هنا) ستكون جوهراً مركزيا من جواهر تشكيلات الرواية، والمرور هنا لا يعني المرور العابر بل على العكس يمثل المرور الذي يترك أثرا كبيرا لا يمحى، بمعنى أن جملة (مرّ من هنا) أشبه بالمثل الذي يحيل على دلالة التجربة في فعل المرور، فحين تقال هذه الجملة ينصرف الذهن التحليلي الدلالي إلى قوة حضور هذا المرور وتأثيره في المكان والزمان.

عتبة الاستهلال

لعتبة الاستهلال ستراتيجية خاصة تقوم على النظر إليها بوصفها جسر عبور من العنوان إلى المتن، إذ يتم العبور من هذا الجسر، ولعتبة الاستهلال وظيفة سردية إجرائية تتمثل في ((إدخال القارئ إلى عالم الرواية التخيلي بأبعاده كلها، من خلال تقديم الخلفية العامة لهذا العالم والخلفية الخاصة بكل شخصية ليستطيع ربط الخيوط والأحداث التي ستنسج بعد.)).

أول مفردة تبدأ بها عتبة الاستهلال هي مفردة مكانية ذات طبيعة خاصة على صعيد حضورها المركزي داخل المكان العام، وطبيعتها في جمع الناس حول حراكها الاجتماعي والاقتصادي والثقافي، وهي مفردة (السوق)، إنها مفردة ذات سعة دلالية كبيرة تحفّز الذهن القرائي على فتح طاقة التخييل على مصراعيها، ولها شبكة من المسارات تجعل من فعالية السرد المحتملة كثيفة وخصبة وتعد بالكثير:

((السوق موارب عن الأعين، يطلّ بعينيه من زاويتين مختلفتين، واحدة على الماء، والأخرى باتجاه الجبال.....))

ثمّة عينان تراقبان المشهد المكاني المكتظّ بالكثير من التفاصيل المشبعة بالرؤية البصرية والرؤية القلبية معا، وثمة حضور ممتلئ للراوي الذاتي المهيمن على حركة المشهد، واستذكار واستعادة للآباء والأسلاف وهم يضعون في هذا السوق إمضاءاتهم على مر العصور، هذا المشهد الاستهلالي الذي يصفه الراوي بكل هذه الرحابة والحساسية المرهفة في مراقبة الزوايا والطبقات والحيثيات، يحيل على رؤية ومكانية تلخّص تجربة الحياة في بؤرة مكانية تمثل المكان كله، على مستوى حضور الشخصيات والأشياء والتفاصيل التي تفضي إلى إمكانات سردية محتملة لا حدود لها، وربما تقف هذه الوظيفة في مقدمة وظائف عتبة الاستهلال حيث تمّهد السبيل واسعا وعميقا للتوغل في طبقات المتن النصر، والتورط القرائي في التجربة السردية التي يعد بها الفضاء الاستهلالي.

رمزيّة (الكيس الأسود): الخفاء والتجلّي

يؤدي (الكيس الأسود) دوراً مركزيا رئيساً في تشكيل الرواية، فهو العلامة الخفية التي تخزن بين طيات أوراقها تفاصيل الرواية في نموذجها الحلمي (التاريخي)، وربما ينطوي اللون الأسود على مرجعيات دلالية متنوعة بحسب طبيعة الاستخدام وتوجيه معطياته، فاللون الأسود يعكس الخوف ويرتبط بالسر الكبير فالفضاء الأسود يتفق معظم البشر بشأنه على أنه يحمل دلالة نفسية يصعب تغييرها، وتدخل في صميم التركيبة النفسية للبشر، وتنطوي هذه الدلالة على معاني الخوف والاحترام والهيبة والمجهول فضلا عن شبكة لا نهاية لها من الدلالات التي تحيك بمعنى هذا اللون وقيمته وتجلياته.

عتبة الاختتام في هذه الرواية تنتهي في منطقة حلم الشخصية، وتقفل سردها على زمن الحكاية، فبعد أن يسافر الراوي الذاتيّ على متن السفينة (سلطانة) وهو يروي هذه التجربة كي يلقي الضوء السردي على شخصية (السيد)، ومن ثم يعود إلى المرتكز المكاني الأصل في الرواية (زنجبار وعمان) إذ يروي مشهد الخاتمة حين ترسو السفينة العائدة على ساحل زنجبار، فتشيع الطمأنينة في نفوس الناس الذي يستذكرون ويستعيدون حكايات سفرتهم الاستثنائية إلى الولايات المتحدة الأميركية، وكيف جرى الاحتفاء بهم وتحدثت الصحف الأميركية عنهم في ظل فضاء إيجابي يحكي قوّة السلطان وحكمته وسلطته:

أيقنّا أن ساحل زنجبار على مبعدة أقدام منا، تفجّر الفرح مرة أخرى، نسي الجميع البؤس والتعب ووفاة ابن جمعة. طرت بفرح طفولي إلى درنكر، قطعت عليه خلوته مع أوراقه، بين أوراقه رأيت ورقة من صحيفة، سألته عنها، قال إنها من صحيفة الهيرالد، كتبت عنكم.

إن المشهد الاختتامي في الرواية يمكن تقسيمه على قسمين داخل مشهد واحد، القسم الأول يصف فيه الراوي مشهد رسو السفينة على ساحل زنجبار مع استذكار ملخّص ومكثّف لتجربة السفر النوعية إلى الولايات المتحدة، وهو القسم العام من المشهد، أما القسم الثاني من مشهد الاختتام فهو (الشخصي) المتعلق بالراوي الذاتي، مستحضراً صورة السفينة سلطان والسلطان والمرافق الحلمي (جوهر) وهو يحتل موقع آخر لفظة في الرواية، إذ سعى الراوي إلى حشد أجزاء هذه الصورة من أجل الشروع بوضع التوقيع السردي الأخير على جسد الرواية

وجدتني أقف على سطح السفينة سلطانة، تلقى مراسيها في المتوني، أمام قصر السلطان، سمعت كلمات الحمد من أفواه، لم يكن سيدي السلطان في زنجبار، أرادت أن تذهب إليه في مسقط لولا أنه غادرها منذ أكثر من تسعة أشهر. رأيتني أهبط سلالم سلطانة نحو اليابسة، شعرت بثقل غريب ورائي، دعاني صوت إلى سرعة النزول، تلفت إلى الوراء، رأيته.. جوهر.

إذ يصف الراوي وضعه بين سلطة الحلم ومرجعية الواقع كي يضع المفردات أمام عدسة السرد والتصوير (السفينة / سلطانة / المتوني/ قصر السلطان/ سيدي السلطان/ زنجبار/ مسقط/ جوهر)، فيحضر التاريخ في المشهد على بوابة الواقع حيث تسهم الرواية في تمثيل الرؤية السردية على هذا الأساس، وتقود نحو استعادة الصورة التاريخية داخل حاضنة سردية روائية تحكي وتسرد وتقص حكاية التاريخ على شكل صورة حلمية في مرايا الراوي، وتشكل جملة (رأيته... جوهر) صورة حية لعلاقة واقع السرد بحلم السرد.

وأخيرا

فرواية((السيد مرّ من هنا)) لمحمد بن سيف الرحبي استلهمت التاريخ بطريقة روائية ليصبح هدفا مركزيا لإعادة إنتاج التاريخ سردياً، ولتكشف لنا عن نجاح الراوي في روايته لاستدعاء الشخصية التاريخية المركزية التي أسهمت في بناء الحضارة العمانية .

شكرا على حسن الاصغاء